المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

الفكر النحْوي
عند أبي القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)

Syntactic Theory of Abo Al-Qasem Al-Zogagy (337 AH)

بقلم الدكتور

أسامة سيد المطراوي

مدرس علوم لغوية بقسم اللغة العربية
كلية الآداب ـ جامعة بني سويف ـ جمهورية مصر العربية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

الفكر النحْوي عند أبي القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)

أسامة سيد المطراوي

قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة بني سويف ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: matrawy_duu991@yahoo.com

الملخص

لقد مرّ أبو القاسم بعدة مراحل فكرية، وهذا ما تمت ملاحظتُه في أثناء البحث عن فكرِه النحْوي؛ وذلك لأن ثقافتَه كانت ثقافة عالم عاش في أواخر القرن الثالث الهجري، وأدرك أربعين عامًا من القرن الرابع الهجري؛ ذلك القرن الذي حفل بنتاج خصب للعقلية الإسلامية، ولقد كانت ثقافته موضع احترام القوم في عصرِه، وعولوا على تصانيفِه حتى ظهر الفارسي وابن جني.

وكان لأبي القاسم أسلوب خاص يدل على دراية تامة بأساليب الحوار والجدل، وكانت مؤلفاتُه النحوية متعددة؛ فمن أبرزِها كتاب "مختصر الزاهر"؛ الذي اختصر فيه كتاب "الزاهر في معاني كلمات الناس" لأبي بكر ابن الأنباري (٣٢٨هـ)، ثمّ عمَد إلى التأليف في موضوع العلل النحوية، فألف كتاب "الإيضاح في علل النحو"؛ الذي جمع فيه العلل النحوية التي عُرفت حتى عصرِه.

وأخيرًا تناول ما ينفع طلاب العلم بعد ما تبين له أن موضوع القواعد النحوية هو الأنفع، فقام بعمل كتاب "الجمل في النحو"؛ الذي أكثر فيه من الشواهد القرآنية والشواهد الشعرية، فكان الأسلوب العلمي التوضيحي بارزًا عندَه، وبذلك نكون قد تعرفْنا على مراحل تطور الفكر النحوي لأبي القاسم منذ البداية حتى النهاية.

الكلمات المفتاحية: الفكر النحوي ، ثقافة العلماء، القرن الثالث الهجري، القرن الرابع الهجري، العقلية الإسلامية، تصانيف العلماء، أساليب الحوار، أساليب الجدل، العلل النحوية، القواعد النحوية، الشواهد القرآنية، الشواهد الشعرية.

Syntactic Theory of Abo Al-Qasem Al-Zogagy (337 AH)

Osama Sayed Al-Matarawy
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Beni Suef University, Arab Republic of Egypt
Email: matrawy_duu991@yahoo.com

Abstract

While investigating his syntactic theory, it has been noticed that Abo Al-Qasem had gone through multiple theoretical stages. This is due to his mentality, which belongs to a scholar that lived in the latest of the 3rd century, which was full of Islamic mentality's achievements. His mentality was appreciated by the people, then. His classifications were adopted until Al-Farisi and Ibn-Jini appeared. Abo Al-Qasem had his own style indicating that he was fully aware of the argumentation and dialogue techniques.

One of his most prominent writings on syntax is "Mokhtasar Al-Zaher", in which Abo Al-Qasem summarized Abo Bakr Al-Anbari's "Al-Zaher fi Maani Kalimaat Al-Nas" (328 AH). Then, he intended to write on syntactical problems, so he wrote "Al-Edaah fi Elal Al-Nahw", in which Abo Al-Qasem compiled the syntactical problems that ever existed until his time. Eventually, he discussed what was useful to students, after he found out that grammar topic was the most important, so he wrote "Al-Gomal fi Al-Nahw", where he used a plethora of Quranic and poetic quotes. His explicit instructional style was outstanding. Thus, Syntactic Theory of Abo Al-Qasem Al-Zogagy is introduced, from the beginning to the end.

Keywords: grammatical thought, culture of scholars, third century AH, fourth century AH, Islamic mentality, classifications of scholars, methods of dialogue, methods of argumentation, grammatical reasons, grammatical rules, Qur'anic evidence, poetic evidence.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله أبدأ، وعلى الله ربي أتوكل، وبحمدِه أتبرأ، وبالصلاة على النبي محمد _صلى الله عليه وسلم_ أتقرب؛ أما بعد فلقد مرّ أبو القاسم بعدة مراحلَ فكريةٍ نحْوية؛ وذلك تزامنًا مع مراحلَ زمنيةٍ متتالية، فكان تارة يندفع في الرد على كلّ ما هو كوفيّ المذهب، وتارة يبحث في العلل الفلسفية من وراء المسائل الخلافية في النحو، مع التزام بمبدأ الحياد والوقوف على مسافة واحدة من الجميع، وتارة يرى أنّ الحديث عن العلل النحوية، ما هو إلا ترف فكري، لا يفيد كثيرًا في تعلم اللغة العربية، ولا يسعى إلى انتحاء سمت العرب في كلامِهم، فبحث في القواعد النحوية للغة العربية؛ والتي تفيد الدارس، وتسهم في بناء شخصيته الفكرية.

وهذا ما تمّت ملاحظتُهُ في أثناء البحث والتنقيب حول ترجمة أبي القاسم بن إسحاق الزجاجي، فتبين للبحث أنّ جل مؤلفاتِهِ النحوية ــ وهذا فيما بين يديّ ــ لا تخرج عن ثلاثة كتب هي: كتاب "مختصر الزاهر"، وكتاب "الإيضاح في علل النحو"، وكتاب "الجمل في النحو"، وترتيبُها هذا جاء حسب أقدمية التأليف؛ فبدأ بـ"مختصر الزاهر"؛ الذي اختصر فيه أبو القاسم كتاب "الزاهر في معاني كلمات الناس" لأبي بكر محمد بن القاسم بن الأنباري(328هـ) (١)، ولم يكتف بالاختصار فقط، بل تناول فيه بعضًا من موضوعات النحو والغريب واللغة، يقول: "ولن أخليَه مما أستحسن إدخالَه فيه من النحو والغريب واللغة والمصادر والتثنية والجمع(٢)".

وبعد فترة زمنية عمد إلى التأليف في موضوع العلل النحوية(٣)، ويتمثل هذا في استقراء العلل النحوية، فظهر "الإيضاح في علل النحو" الذي يُعدّ من أنفس ما كُتِب في موضوع العلل النحوية، فقد جمع أبو القاسم فيه العلل النحويةَ التي عُرفت حتى عصرِه، سواء ما اتصل منها بالحدود وأحكام الإعراب، أو ما اتصل منها بالفروض والظنون الجدلية، ونثر في تضاعيف ذلك بعض آرائه، غيرَ مُتحيِّفٍ لآراء من سبقوه من البصريين والكوفيين والبغداديين، فهو يعرض آراءَهم وعللَهم

في دقة وتحرٍّ شديد، وفي هذا دليل ذيوع أمر العلل آنذاك؛ وهذا الذيوع والانتشار لها كان مدعاةً لعمل كتاب يبحث فيه العلة النحوية.

وبعد ذلك تبيّن له أنّ موضوع القواعد النحوية هو الأجدى والأنفع؛ فقام بعمل "الجمل في النحو"، وهو كتاب يخلو من التعقيد، فكان يُكثر فيه من الشواهد سواء القرآنية، أو الشعرية، أو الأمثلة؛ وذلك من خلال أسلوب سهل ميسور، ليس فيه قصور، حتى يصل إلى أذهان طلاب العلم، ويبدو الأسلوب العلمي التوضيحي بارزًا، فكان ينهي أبو القاسم مثلًا بعض الأبواب بعبارة "فافهم، و فقسْ عليه تصب إن شاء الله(٤)".

ولكي يتسنى لي الإلمامُ بجوانب هذا البحث إلمامًا كافيًا ينبغي أن أسلط الضوء على الأفكار الآتية:

أولًا: التعريف بأبي القاسم الزجاجي

ثانيًا: فكر الزجاجي في "مختصر الزاهر"

ثالثًا: فكر الزجاجي في "الإيضاح في علل النحو"

رابعًا: فكر الزجاجي في "الجمل في النحو"

خامسًا: النتائج والتوصيات

وهذا على سبيل التقديم وإليكم التفصيل:

فيما يتعلق بـــ"التعريف بأبي القاسم الزجاجي"

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، يقف نسبه عند أبيه، فلا يـــذكر أحـــد عنه شيئًا بعد ذلك على كثرة الذين ترجموا له، ولد بنهاوند ـــــ جنوبي همذان ـــــ وطاف كثيرًا من البلدان منها على سبيل المثال لا الحصر بغداد، وفيها لقي أســـتاذَه إبراهيم بن السري الزجاج، وبسبب طول صحبته له أُطلِق عليه الزجـــاجي نســـبةً إليه، وقد مات بطبرية عام 337 هـــ، وقيل 340هـــ(٥).

تدُلّ سيرةُ أبي القاسم على أنّه كان محبًّا للعلم والعلماء، فأكثر من الأخذ عن علماء عصره، فأخذ عن الزّجاج، ومحمد بن رستم الطبري، وابن كيســـان، وابـــن شقير، وابن الخيّاط، وابن السراج، والأخفش وغيرِهم. فابن الســـراج كـــان أحـــد العلماء المذكورين، وأئمة النحو المشهورين، أخذ عن أبي العباس المبـــرد، وإليـــه انتهت الرياسة في النحو بعد المبرد(٦).

ورجل بهذه الدرجة من العلم من الطبيعي أن يكون له العديد من المريـــدين وطلاب العلم، الذين أخذوا عنه العلم مشافهة وتلقينًا في مساجد بغداد آنذاك، فقيل إنّ أكثر تلاميذِه كانوا دمشقيين، وبعضَهم كان من بلاد أخرى، وأبرزهم عبد الـــرحمن بن محمد بن أبي النصر، ومحمد بن سابقة النحوي، وأحمد بن محمد بن سلامة(٧).

وكانت ثقافةُ أبي القاسم ثقافةَ عالمٍ عاش في أواخر القرن الثالث الهجـــري، وأدرك أربعينَ عامًا من القرن الرابع الهجري، فكانت ثقافتُه نموذجًـــا مـــن ثقافـــة العلماء في القرن الرابع؛ ذلك القرن الذي حفل بنتاج خصب للعقلية الإسلامية فـــي أوج نضجِها ورقيها، ولذلك كان من أكثر العلماء طلبًا للعلم، وأنشطِهم في التأليف. ولقد كانت ثقافتُه موضعَ احترام القوم في عصرِه، فقد أثنوا عليـــه وعوّلـــوا علـــى تصانيفه حتى ظهر الفارسي وابن جني، ولم يوجه إليه أحدٌ طعنًا سوى أبي علـــي الفارسي؛ الذي قال حين وقف على بعض مسائله في النحو: " لو سمع الزجـــاجيُّ كلامَنا في النحو لاستحيا أن يتكلم فيه(٨)".

وقد يكون مرد هذا القول الدوافع النفسية من عداوة الصنعة، أو بسبب حب الفارسي لسيبويه وتعصبِه له وسخطِه على مخالفيه، فأبو القاسم لم يكن يقبل كلّ آراء سيبويه، بل خالفَه في بعضِها، وقال في بعضِها بغير رأيه. وكان له أسلوب خاص يدل على دراية تامة بأساليب الحوار والجدل؛ فهو يعرض المسألة بإيجاز ويورد ما قيل فيها من الآراء والحجج، ثمّ ينقد ويقوِّم فيضعف وينقض أو يقوى ويستحسن سالكًا سبيل المنطقيين في إيراد حجج الخصوم بغية هدمِها وإقامة الرأي على أنقاضِها.

ومن الملاحظ علي أسلوب أبي القاسم أنه يمتاز بالدقة والأمانة في النقل والرواية؛ عملًا بالمبدأ القائل: "اسمعْ منّي ولا تسمعْ عنّي(٩)". ومن أدلة دقتِه وأمانتِه أنّه سُئِلَ سؤالا فردّ قائلًا: "وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيءٍ من كتبهم، وهي مسطرة في كتب الكوفيين، ولكني سألت عنها أبا بكر ابن الخيّاط وابن شقير فأجاباني بما ذكرتُه لك ... (١٠)".

لقد كانت مؤلفات أبي القاسم متنوعة، فقد ألف في النحو، والصرف، واللغة، وحروف الهجاء، والمعاني، والعروض، والأدب، وعلى الرغم من سعة إنتاجه إلا أن العديد من مؤلفاته لم تصل إلينا، ومن أبرزِها ما يأتي:

** كتاب مختصر الزاهر:

هو كتاب اختصر فيه أبو القاسم كتاب "الزاهر في معاني كلمات الناس" لأبي بكر محمد ابن القاسم بن الأنباري (328هـ)، وهو يُصنف تحت كتاب الأمثال والأقوال، قال عنه صاحبه: " إن من أشرف العلم منزلة وأرفعِه درجة ... معرفةَ معاني الكلام الذي يستعمله الناس في صلواتهم ... وهم غير عالمين بمعنى ما يتكلمون به من ذلك، وأنا موضح في كتابي هذا إن شاء الله معاني ذلك كلِه...(١١)". ولم يكتف عند هذا الحد، بل تناول فيه بعضًا من موضوعات النحو والغريب واللغة، يقول: "ولن أخليه مما أستحسن إدخاله فيه من النحو والغريب واللغة والمصادر والتثنية والجمع(١٢)".

** كتاب الإيضاح:

هو كتاب يبحث في العلة النحْوية، وقام بتحقيقه الدكتور مازن المبارك في القاهرة عام 1959م، ونشرت دار النفائس في بيروت الطبعة الثانية عام 1973م، والطبعة الثالثة عام 1979م.

** كتاب الجُمل:

صنفه أبو القاسم بمكة وطار ذكرُه بين الناس، وهو كتاب في النحو، في عام 1926م طُبع في الجزائر بتحقيق ابن أبي شنب، وطبعته مؤسسة الرسالة، ودار الأمل ببيروت عام 1984م، بتحقيق الدكتور علي توفيق الحمد، وهذه القيمة هي التي تفسر ازدحام العلماء على شرحه والتعليق عليه، حتى وُضِع له في المغرب مئةٌ وعشرون شرْحًا([١٣]).

فيما يتعلق بـ فكر الزجاجي في "مختصر الزاهر"

جاء هذا الكتاب من قبل أبي القاسم الزجاجي ردًا على كتاب "الزاهر في معاني كلمات النّاس" لأبي بكر محمّد بن القاسم بن الأنباري؛ الذي كان كوفيًّا، وذلك بسبب نشأته في بيئة كوفية، فكان والدُه من كبراء علماء الكوفة في عصره، فاقتفى أثر والده في تبني آراء الكوفيين النحوية والصرفية، حتى أن من يطالع كتابه الزاهر يجد أنه كان يميل مع كل ما هو كوفي حيث مال، وهذا لا لشيء سوى الانتصار للمذهب.

وقد بيّن أبو القاسم منهجَه في كتابه المختصر، حيث عمد إلى إصلاح ما وقع فيه من الخطأ والزلل، حتى لا يُفسد عقول طلاب العلم، فقال: " إلا أني تدبرْتُ الكتاب الزاهرَ، فوجدْتُ فيه من السهو والغلط شيئًا كثيرًا؛ فرأيتُ مع اختصاره وتهذيب ألفاظه إصلاحَ ما فيه من الغلط، وكشفَه وشرحَه؛ لأنه كتابٌ مقصودٌ به المبتدئون للنظر في علْم اللغة، فمتى تعلق المبتدئُ بشيءٍ من هذا الكتاب، ومرن عليه واعتقدَه، ورأى أنّه الحق دون سواه، فبيّنْتُ للناظر فيه حقيقة تلك الأشياء ليعرفها([١٤])".

فمن الواضح أنّ الزجاجي يرى أن كتاب الزاهر لابن الأنباري فيه من الأخطاء ما يجعله يفكر في اختصاره، وتصويب ما فيه من الزلل، وقد يكون السبب في وقوف الزجاجي لابن الأنباري بالمرصاد، كون ابن الأنباري كوفيًّا لا بصريةَ فيه، علمًا بأنّ كتاب الزاهر يركز على جانب اللغة، لكنه لا يخلو من العديد من المسائل النحوية والصرفية.

وصنفه بعضهم تحت كتاب الأمثال والأقوال، وعبّر عن هذا المعنى بقوله: " إن من أشرف العلم منزلة وأرفعه درجة ... معرفة معاني الكلام الذي يستعمله الناس في صلواتهم ... وهم غير عالمين بمعنى ما يتكلمون به من ذلك، وأنا موضح في كتابي هذا إن شاء الله معاني ذلك كله ... "، وتناول فيه بعضًا من موضوعات النحو والغريب واللغة، يقول: " ولن أخليه مما أستحسن إدخاله فيه من النحو والغريب واللغة والمصادر والتثنية والجمع".

ومن أبرز الأدلة على أن أبا القاسم كان هدفه دحض آراء أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري النحْوية، قوله: " ووجدْتُ فيه أيضًا مواضعَ قد ذكرها من النحو وعللِه، ومن التصاريف على مذاهب الكوفيين، فذكرتُها على مذاهب البصريين، ودللْتُ على صحة مذاهبهم دون مذهب الكوفيين(١٥)".

ففي هذا الموضع تظهر الوجهة النحوية للزجاجي جلية، فهو يميل إلى مذهب البصريين على حساب الكوفيين، وهذه عين العصبية المذهبية؛ التي ذمّها الزجاجي في مقدمة كتابه الإيضاح، وأنه لا يميل لفريق على حساب أخر، فقال: " ذاكرين أكثر ذلك مما بين البصريين والكوفيين فيه من الخلاف، ومحتجين للفريقين بأجود ما احتجوا فيه، وما يوجبه القياس غير متحاملين على أحد الفريقين دون الآخر ومؤيدين له بالشواهد والبراهين الواضحة(١٦)".

ومن الأدلة على أن أبا القاسم كان يكيل الاتهام لأبي بكر بن الأنباري، ما ذهب إليه أنه أخذ جل مقدمة الزاهر من تفسير الطبري، فقال: " ابتدأه بخطبة نقل

عامتها من خطبة أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري في أول كتابِه في التفسير، وهي مع ذلك غير لائقة بالزاهر(١٧)".

وبعد البحث والتنقيب تبيّن أنّ أبا بكر بن الأنباري لم يأخذ سوى ثلاث عبارات هي: الذي حجّتْ الألبابَ بدائعُ حكمِه، وخصمتْ العقولَ لطائفُ حُججه، وقطعت عذْرَ الملحدين عجائبُ صُنعه، وفي هذا دليل على أن المرحلة الفكرية الأولى من حياة الزجاجي كانت ترفض كل ما هو كوفيّ بصرف النظر عن تجنب إلصاق التهم بالأخرين، والتسرع في إصدار الأحكام.

ولم يكتف عند هذا الحد، بل تجاوز ذلك إلى التقليل من مجهود أبي بكر بن الأنباري، وقال بأن كتاب الزاهر في معاني كلام النّاس منقول عن كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة، وليس فيه إبداع، فقال: " وقد كان المفضل بن سلمة صاحب الفرّاء أنشأ كتابًا في هذا المعنى سمّاه الفاخر ... فعمد أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري لذلك الكتاب فنقله نقلًا وزيد فيه ... (١٨)".

والغريب في هذا الموضع أن الزجاجي انتقد المفضل بن سلمة مع أبي بكر الأنباري أيضًا، وعندما بحثْتُ عن مذهب هذا الرجل وجدْتُه أيضًا كوفيَّ المذهب، فجاء في كتاب نزهة الألباء ما نصّه: " وأمّا أبو طالب المفضل بن سلمة، فإنه كان لغويًّا فاضلًا، كوفيَّ المذهب(١٩)".

ومن الواضح أن كوفية الاثنين هي التي جعلت أبا القاسم يقول في مقدمة المختصر: " وقد كان المفضل بن سلمة صاحب الفرّاء أنشأ كتابًا في هذا المعنى سمّاه الفاخر، جمع فيه قطعة من اشتقاق ما يكثر ترددُه في المحاورات والمخاطبات، فعمد أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري لذلك الكتاب فنقلَه نقلًا وزيد فيه وبسطَه وكثّر بالشواهد، وليس للكتابينِ ترصيفٌ ولا نظمٌ مستخرج يتعب فيه المؤلف، وإنّما هي حروفٌ بأعيانها منقولةٌ عن كتب المتقدمين معروفةُ المواضع منها، فهما ومَن تكلم في هذه الحروف غيرَهما سواء(٢٠)".

وبسبب هذه الموجة العارمة من الانتقادات والاعتراضات من قبل أبي القاسم الزجاجي على أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري؛ يتضح أنّ كتاب مختصر الزاهر كان سابقًا في التأليف على كتاب الإيضاح، لما في بداية الثقل العلمي من اندفاع وتعصب للآراء العلمية بشكل عام، والنحوية والصرفية بشكل خاص.

ومن الأدلة على سبْق المختصر على الإيضاح، ما حكاه الزجاجيُّ عن المسألة التي جرت بينه وبين أبي بكر بن الأنباري في الخلاف حول الفعل والمصدر أيُّهما مأخوذٌ من صاحبه، فختم كلامه عنها بما حكاه لأبي بكر بن الخيّاط، وأنّ أبا بكر بن الأنباري ظلّ على رأيه حتى بعد مضي زمنٍ بعيد، فقال: "هذه أشياء يولدُها من عندَه على مذاهب القوم، ليست محكية عن الفراء، ولا موجودة في كتبِه، ولكنها مما يرى أنها تؤيد المذهب وتنصرُه، ثم رأيته بعد ذلك بمدة بعيدة قد ذكر هذه الاحتجاجات أو قريبًا منها في بعض كتبِه ولم يرجع عنها([٢١])".

فقوله هنا بمدة بعيدة، يُفهم منها أنه كان يناقش ويحاجج أبا بكر بن الأنباري في بداية حياتِه، ومن صور الحجاج عنده كتاب مختصر الزاهر؛ الذي سعى فيه سعيًّا حثيثًا لمعارضتِه ودحض آرائِه، ثمّ بعد ذلك شرع في تأليف كتاب الإيضاح، ومن خلاله أشار لهذه المعلومة، وبالتالي كان المختصر قبل الإيضاح.

ومن أمثلة المواضع التي انتصر فيها لقول البصريين على حساب الكوفيين، ما جاء في مختصر الزاهر عند حديثه عن تصغير كلمة إنسان، " قال الزجاجي: هذا الذي ذكره عن الفرّاء من الدليل على أن أصله إنْسِيانٌ، أن العرب تقول في تصغيره أُنَيْسِيان ليس بلازم؛ لأنّ العرب قد تُصغِّر أشياء على غير ألفاظ تكبيرِها، كقول بعضِهم تصغير رجل: رُوَيْجِل، وفي تصغير عشيّة: عُشَيْشَة، وفي ليلة: لُيَيْلِيَة، فزادوا في التصغير أشياءَ لم تكن في التكبير، فكذلك قول مَنْ قال من العرب أُنَيْسِيان في التصغير من هذا النوع، والوجه عند البصْريين أن يكون فِعْلانًا من الأُنس؛ لأنه يأنس ويُؤنس به([٢٢])".

فالوجه المعتمد عنده في هذا الموضع ما يراه البصريون، وأيضًا ما ذكرَه في كلمة حاشى، يقول: " وأمّا قولُه: من خفض بها أضمر اللام فغير جائز عند البصريين من جهتين: **إحداهما:** أنّ حاشى إذا خُفض بها فهي حرف خفض، وحرف الخفض لا يُوصل بحرف مثله، كما لا توصل من ب إلى، ولا في ب الباء، وما أشبه ذلك. **والآخر:** أنّ إضمار الحرف الجار غير مستعمل إلا فيما جرى نحو المثل، أو كثر استعمالُه فكذلك(٢٣)".

فمن الواضح أن الاختلاف المذهبي بين الزجاجي وأبي بكر بن الأنباري كان دافعًا له على الاختلاف مع ابن الأنباري، ومن أهم المواضع التي اختلف معه فيها:

ــ إجازة الفرّاء ورد الزجاجي. ــ الاختلاف بين سيبويه والفرّاء.

ــ الاختلاف في وزن آية. ــ الاختلاف في الهمزة.

ــ مذهب البصريين والكوفيين في " اللهمّ "(٢٤).

وهذا ــ بدورِه ــ يُعدّ مرحلة فكرية أولى، بها ما بها من التسرع في الأحكام على كلّ مخالفٍ له في الرأي، وهذا يُعدّ مستساغًا في بداية مرحلة التلمذة وطلب العلم، فالإنسان المتخمّر في العلم (مُعلِّم ومتعلم في الوقت نفسِه) لايرى إلا ما يرى من علم، وبعد مرور الوقت والزمن، ومع الخبرة وكثرة الاطلاع، فإن موجة الاندفاع تضمحل شيئًا فشيئًا.

فيما يتعلق بـــ فكر الزجاجي في "الإيضاح في علل النحو"

قام أبو القاسم بعمل كتاب "الإيضاح في علل النحو" بعد كتاب "مختصر الزاهر"، وتميز في هذا العمل بفتور حدة العصبية المذهبية لديه، فكان يعرض الآراء كلها دون تحيز لطرف على حساب طرف، والأدلة على ذلك كثيرة منها ما يأتي:

أولًا: عندما كان يعرض المسائل الخلافية كان حياده حتى في عرضه لها، إذ يبدأُ الزجاجيُّ ــ مثلا ــ عرض المسألة بذكر رأيِّ البصريين ويمثله غالبًا قول سيبويه. ويتبعه برأيّ المخالفين ثم يفصل حجج كلٍّ منهم بادئًا بحجج الأضعف ليختم

الحديث بإقرار حجج الأقوى([٢٥])؛ وقد يعكس فيقدم الأقوى ثمّ يتبعها بالأضعف ليوهّيها ويبين فسادها([٢٦]).

ثانيًا: في تأييده للمذهبين كان محايدًا، فلم يفضل مذهبًا على آخر، فالمواضع التي أيد فيها أبو القاسم الزجاجي المذهب البصري، كان عددها موضعينِ اثنَينِ، والمواضع التي أيد فيها المذهب الكوفي، كان عددها موضعينِ اثنَينِ، والمواضع التي أيد فيها المذهب البصري والكوفي، كان عددها ثلاثة مواضع، والمواضع التي رفض فيها المذهب البصري والكوفي، كان عددها موضعينِ اثنَينِ.

وفي هذا دليلٌ على أنه في هذه الفترة الزمنية من حياته كان منصفًا بدرجة كبيرة، فبعد رفضه لكل ما هو كوفي في الفترة السابقة على الإيضاح، وهي فترة تأليف مختصر الزاهر، فإنه أيد بعض آراء الكوفة، ووقف حجر عثرة أمام بعض آراء البصرة.

وقد عبّر عن حياده وإنصافه بقوله مخاطبًا من ينتقد كلامه، ويرى حجة غير حجته: "ومن سمت به نفسه إلى تتبع ما أودعناه إيّاه وسميّناه فيه وفحصه والكشف عن حقائقه، فحقيقٌ عليه إن مرّ به ما ينكره أن يراجع فكره ويثير قريحته ويحرك خاطره ليقف على ما لعله قد انستر عنه، ولا يحكم من أول وهلة بخروج عن الحق، فإن هو فعل ذلك وتدبره، ولم يره ينقاد فى طريقة القياس مستمرًا، أو رأى أنه لا حقّ إلا فى غيره كانت حلبة التناظر ــ باجتماع ذوي الفهم والنظر والفحص والجدال معنا فيها ــ فاصلةً بيننا وبينه حتى نصيرَ معًا بحق النظر إلى الصواب فنعتقده جميعًا، لأن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل([٢٧])".

ويُعدّ كتابَ " الإيضاح في علل النحو " من أنفس ما كُتِب في موضوع العلل النحوية، فقد جمع الزجاجيّ فيه العلل النحويةَ التي عُرفت حتى عصره، سواء ما اتصل منها بالحدود وأحكام الإعراب، أو ما اتصل منها بالفروض والظنون الجدلية، ونثر في تضاعيف ذلك بعض آرائه، غير مُتحيِّفٍ لآراء من سبقوه من البصريين والكوفيين والبغداديين، فهو يعرض آراءهم وعللهم في دقة وتحرٍّ شديد،

وقد يتدخل فيُؤثر رأيًا علي رأيٍّ، أو علةً علي علةٍ، وقد يترك ذلك للقارئ حتى تستبنَ له الحجةُ الصحيحة التى يحكم على أساسِها بين الطرفين المتعارضين.

ومن خلال مطالعة هذا الكتاب وُجد أنه يتكون من مقدمة، وثلاثة وعشرين بابًا، فضلًا عن بعض المسائل المتفرقة التى ألحقها الزّجاجيُّ فى آخرِه.

وقد أثار في المقدمة(٢٨) كثيرًا من القضايا، من أهمها:

١ ــ الدفاع عن الإيضاح والعناية به، لأنه صورة لعقل صاحبه يعرضها على النّاس.

٢ ــ بيَّنَ فيها سبب وضع الكتاب وموضوعَه؛ ألا وهو العلل النحْويّة خاصة، وأنه لن يتعرضَ للأصول النحوية.

٣ ــ أشار الزجاجي إلى مصادر بحثه فى المقدمة أيضًا؛ وذلك من خلال كتب غيرِه، والأخذ عن العلماء السابقين، وأن هذا الكتاب يقدمه إلى من يحبّ التطلع إلي العلم.

٤ ــ عرض فيها سبب تسمية الإيضاح بالإيضاح، مع ذكر أقسام الكتاب يقول معبرًا عن ذلك " وهذا الكتاب ينقسم قسمينِ: القسم الأول منه فى ذكر العلل خاصة، والثاني فى المسائل المجردة. ليكون أسهل متناولًا(٢٩)".

وقد عمد الزّجاجيّ على الانتقاء من أدلة النحاة أصلحها وأسدها، فلم يكن محبًا للإكثار في غير طائل، فكان لا يذكر إلا ما يراه العلة الشافية، ولم يكن كغيره من النحاة الذين حشدوا في تآليفهم كلَّ غريب من القول، وقد عبر عن ذلك بقوله: " فإن كان لباب من الأبواب عللٌ قد تكلم عليها العلماء لم نذكر إلا أجودها وأسدها(٣٠)".

وأسلوب الكتاب يقوم علي الجدال وعرض البراهين المختلفة لشتي آراء النحويين، وكثيرًا ما يتخذ في معالجته للأفكار طريقة السؤال والجواب ـــ وهو ما اُصطُلِحَ علي تسميته بالحجاج الضمني ـــ حتي إذا لم يجد سائلًا يسأله تخيّله تخيّلًا، وألقى السؤال على نفسه ليتولي الإجابة عنه.

وفي عرضه لمسائل النحو، وإيراده آراء النحاة المختلفة، وذكر ما ورد عليها من الاعتراضات، وما قدموه بين يديّها من الأدلة والبراهين يسلك طريقتين هما:

الطريقة الأولى: إذ يبدأُ الزجاجيُّ ــ مثلا ــ عرض المسألة بذكر رأيٍّ البصريين ويمثله غالبًا قول سيبويه، ويتبعه برأيّ المخالفين ثم يفصل حجج كلٍّ منهم بادئًا بحجج الأضعف ليختم الحديث بإقرار حجج الأقوى؛ من مثل باب القول في الألف والياء والواو في التثنية والجمع.

الطريقة الثانية: وقد يعكس فيقدم الأقوى ثمّ يتبعها بالأضعف ليوهّيها ويبين فسادها؛ من مثل باب القول في الفعل والمصدر، أيُّهما مأخوذٌ من صاحبه.

وكان أبو القاسم من الروّاد الأوائل الذين فقهوا لغة العرب، وتعمقوا أسرار قواعدها، ثمّ حاولوا التيسير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. مع الأخذ فى الحسبان أن الإيضاح كتابٌ فى العلل النحوية، وهذا فخر أيما فخرٍ، وخاصة أنه يُعدّ من أوائل من تحدثوا عنها ومع ذلك يُؤخذ على كتاب الإيضاح فى علل النحو ما يأتي:

_ أنّ الزّجاجيّ قسم العلل النحوية ثلاثة أقسامٍ: تعليمية، وقياسية، وجدلية. وهو تقسيم جيد، ولكن لم يذكر الزجاجي رأيه فى كلّ قسم. ولو أن هذا الباب جاء بعد المقدمة، ثم قسم كتابه تبعًا لأقسام العلة النحوية لكان هذا أنجع وأحسن، ثم أدخل تحت كلّ باب ما يناسبه من علل وبذلك يكون قد جمع بين التأصيل النظري والتطبيق العملي.

_ على الرغم من أن عتبة كتاب الزجاجي هي الإيضاح فى علل النحو إلا أنه ذكر فى الباب الخامس من الكتاب علل النحو، فيما لا يتجاوز الصفحتين، وكيف ذلك والكتاب أصلًا فى العلل النحوية. فياليته أفاض فى الحديث عن العلل النحوية من أجل التناسب بين عنوان الكتاب وموضوعه.

_ لقد استنفد الزّجاجيُّ طاقتَه فى مقدمة الكتاب فى الدفاع عن نفسه وكتابه فى آنٍ واحد مخالفًا بذلك المعني الموروث عن المقدَّمة التى تقدم العمل من أول وهلة للقارئ حتى يتعرف طبيعة الموضوع قبل الخوض فيه. فلو أنه استبدل ذلك بالحديث عن العلة فى النحو نشأتها وتطورها؛ والتى هى بطبيعة الحال هى موضوع كتابه([٣١]).

_ وإذا تدبّرْنا تقسيم الإيضاح وجدناه غير متوازن، وذلك بسبب أن القسم الثاني منه به مسائل صغيرة ليست جديرةً بأن تنال هذه الأهمية فيتحدث عنها في المقدمة ويذكرها غير مرة فى تضاعيف الكتاب. ومع ذلك نشكر له التزامه بما ذكر. فقد ذكر أن الكتاب قسمان: قسمٌ للعل، وقسم للمسائل(٣٢).

فيما يتعلق بـ فكر الزجاجي في "الجمل في النحو"

وبعد مرحلة البحث في العلل النحوية، والتي تميزتْ بكونها عللًا فلسفية جدلية، لا تفيد كثيرًا في تعليم الدارس ما يستقيم به القلم واللسان، بدأ أبو القاسم النظر في علم النحو من ناحية القواعد، التي تساعد طالب العلم على انتحاء سمْت العرب في كلامها، ومن هنا طفق يؤلف كتاب الجمل في النحو.

فضمّ هذا الكتاب (149 بابًا) مائة وخمسة وأربعين بابًا، تناولت هذه الأبوابُ موضوعاتٍ من النحو والصرف والأصوات والتأريخ، والضرورات الشعرية، وذلك بأسلوب واضح ومناسب لبداية مرحلة التلمذة والطلب، فلسان حال أبي القاسم يقول لمن يطالع كتابه الجمل في النحو: إنّ موضوع القواعد النحوية هو المفيد، وليس البحث في العلل الجدلية، وهذا بدوره دليل على أن هذه المرحلة كانت مرحلة تفكير فيما ينفع اللغة فقط.

وهذا المعنى ذكرَه أبو حيّان في "منهج السالك" حيث قال: "النحويون مولعون بكثرة التعليل، ولو كانوا يضعون مكان التعاليل أحكامًا نحوية مستندة إلى السماع الصحيح لكان أجدى وأنفع، وكثيرًا ما نطالع أوراقًا في تعليل الحكم الواحد، ومعارضات ومناقشات، ورد بعضهم على بعض في ذلك ... فنسأم من ذلك، وما يحصل في أيدينا شيء من العلم".

ومن هنا تميز في تأليف الجمل في النحو بذكر شواهد كثيرة، سواء أكانت قرآنية، أم شعرية، أم أمثلة، فأورد ما يزيد على مائة وعشرين شاهدًا قرْآنيًّا، وما يزيد على مائة وستين بيتًا من الشعر والرجز، وعددًا من الأمثال والأقوال المشهورة، والغريب أنه لم يذكر سوى حديثين فقط.

ولعلّ من نافلة القول الشروع في عرض موجز لأقسام الكتاب، حيث بدأ ببعض التقسيمات الصرفية، ثمّ تناول مجموعة من الأبواب النحْوية، مع بعض الإشارات الصوتية، ثمّ ذكر وابلًا من الأبواب الصرفية كالتصغير والنسب والأفعال المهموزة، وألف الوصل والقطع، ثمّ ختم كتابه بأبواب نحْوية من مثل الأدوات واستخداماتها، وأبواب الحكاية، مع بعض أبواب صرفية من مثل أبنية المصادر والأفعال، والإعلال والإبدال، مع بعض الظواهر الصوتية من مثل الحروف المجهورة والمهموسة.

وعلى أية حال فما الدليل على أن كتاب الجمل في النحو كان بعد كتاب الإيضاح؟ ومن الواضح أن كتاب الجمل ألفه الزجاجي في أواخر حياته بعد الإيضاح؛ وذلك لأنه كتاب قيّم به من العلم الكثير، وكأنه أُلِفَ بعد الثقل العلمي والخبرة، التي توصل من خلالها إلى أن العلم النافع هو الحديث عن القواعد بعيدًا عن الخلافات المذهبية، فضلًا عن وجود إشارة لكتاب الإيضاح في باب معرفة المعرب والمبني من كتاب الجمل في النحو، فقال منوّهًا لكتاب الإيضاح في علل النحو: "وجميع ما يبنى من هذه الأسماء، فإنما تبنى لمضارعتها الحروف، وعللها مشروحة مستقصاة في كتاب الإيضاح(٣٣)".

فمثلًا إذا نظرنا إلى باب البدل، نجده عرض لأنواع البدل الأربعة بإجمال، ثمّ فصّل القول فيها واحدة تلو الأخرى، مع ذكر العديد من الشواهد القرآنية والشعرية التي تؤكد صحة أقواله، من مثل قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} كشاهد على بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، وأيضًا قول الشاعر:

وكنتُ كذي رجلَينِ، رجلٍ صحيحةٍ * ورجلٍ رمى فيها الزمان فشلَّتِ.(٣٤)**

وذلك كشاهد على بدل النكرة من النكرة، وختم هذا الباب بما يؤيد طبيعة هذا الكتاب التعليمية، فقال: " وليس الغلط مما يجري بقياس، فيحتاج إلى تمثيل، فافهمْ تُصب إن شاء الله".(٣٥)

خاتمة بأهم النتائج والتوصيات

لقد أسفر هذا البحث عن العديد من النتائج؛ من أهمِها:

أولًا: أكد البحث على مدى عمق ثقافة أبي القاسم الزجاجي؛ لذلك كانت ثقافتُه موضع احترام العلماء في عصرِه.

ثانيًا: أكد البحث على أنّ لأبي القاسم أسلوبًا مميزًا في حوارِه مع كلام مَن سبقَه من العلماء؛ لذلك عوّل العلماء على تصانيفِه حتى ظهر الفارسي وابن جني.

ثالثًا: أكد البحث على أنّ كتاب "مختصر الزاهر" هو من أبرز مؤلفات أبي القاسم النحْوية، وهو مختصر لكتاب "الزاهر في معاني كلمات الناس" لابن الأنباري.

رابعًا: توصل البحث إلى أنّ أبا القاسم مرّ بعدة مراحل فكرية نحوية، وذلك تزامنًا مع مراحل حياتِه العلمية المختلفة.

خامسًا: أثبت البحث أنّ أول مرحلة فكرية عند أبي القاسم ظهرت في كتاب "مختصر الزاهر"، وهي مرحلة مليئة بالاندفاع والانتصار للمذهب.

سادسًا: أثبت البحث أنّ ثاني مرحلة فكرية عند أبي القاسم ظهرت في كتاب "الإيضاح في علل النحو"، وهي مرحلة مليئة بالموضوعية وعدم الانحياز.

سابعًا: أثبت البحث أنّ ثالث مرحلة فكرية عند أبي القاسم ظهرت في كتاب "الجمل في النحو"، وهي مرحلة تسعى إلى ما ينفع الطلاب؛ أي ما يستقيم به القلم واللسان.

ومن أهم التوصيات التي أسفر عنها هذا البحث:

أولًا: من الممكن تتبع نتاج الزجاج (أستاذ الزجاجي) النحوي؛ للتعرف على مدى تطوره.

ثانيًا: من الممكن تتبع نتاج الفارسي النحوي؛ للتعرف على مدى تطوره.

ثالثًا: من الممكن تتبع نتاج ابن جني النحوي؛ للتعرف على مدى تطوره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدِنا محمد وعلى آلِه وصحبِه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

المصادر والمراجع

_ الأشباه والنظائر، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت: طه عبد الرؤوف سعد، ١٣٩٥هـ _ ١٩٧٥م.

_ الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي، ت: د/ مازن المبارك، ط: ٥، بيروت دار النفائس، ١٤٠٢م.

_ الجمل في النحو، لأبي القاسم الزجاجي، ت: علي توفيق الحمد، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ _ ١٩٨٤م.

_ الزجاجي حياتُه وآثارُه ومذهبُه النحْوي من خلال كتاب الإيضاح، د/ مازن المبارك، دمشق دار الفكر، ط: ٢، ١٤٠٤هـ _ ١٩٨٤م.

_ المدارس النحوية، د/ شوقي ضيف، القاهرة دار المعارف، ط: ٧، ١٩٩٢م.

_ إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين علي القفطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة دار الفكر، ١٤٠٦هـ _ ١٩٨٦م.

_ بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت: **محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤م.**

_ طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد الزبيدي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ٢، القاهرة دار المعارف، د ت.

_ مختصر الزاهر، أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي، ت: تامر محمد أمين حسين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر ١٤٣٤هـ _ ٢٠١٣م.

_ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، عفيف الدين عبد الله اليافعي، ت: خليل المنصور، بيروت دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

_ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله جمال الدين ابن هشام، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة دار الطلائع، ٢٠٠٥م.

_ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات عبد الرحمن الأنباري، ت: إبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٥٩م.

روافد البحث

(١) يُنظر المدارس النّحْوية، د شوقي ضيف: ١٣ .

(٢) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٣ .

(٣) والدليل على ذلك أنّ كتاب العلل النحوية كان قبل كتاب الجمل في النحـــو، أنّ هناك إشارة له في كتاب الجمل في النحو، ص: ٢٦٤.

(٤) الجمل في النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٢٦ .

(٥) يُنظر بُغية الوعاة، للسيوطي: ٢٩٧، و طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي: ١٢٩، و إنباه الرواة، للقفطي: ٢/ ١٦٠ .

(٦) يُنظر نزهة الألباء في معرفة الأدباء، للأنباري: ١٨٦ .

(٧) الزجاجي ومذهبُه النحْوي، د/ مازن المبارك: ١١ .

(٨) إنباه الرواة، للقفطي: ٢/ ١٦٠ .

(٩) سمعتُه من أحد المحاضرين في إحدى الندوات، ولم أتذكر اسمَه .

(١٠) الأشباه والنظائر، للسيوطي: ٢/ ١٤٦ .

(١١) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٣ .

(١٢) يُنظر مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٣ .

(١٣) يُنظر مرآة الجنان، لليافعي: ٢/ ٣٣٢ .

(١٤) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٢ .

(١٥) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٣ .

(١٦) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٣٩ .

(١٧) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٦ .

(١٨) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٢ .

(١٩) نزهة الألباء في معرفة الأدباء، للأنباري: ١٥٤ .

(٢٠) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٢ .

(٢١) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٦٣ .

(٢٢) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٢١٩ .

(٢٣) مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٢٩٨ .

(٢٤) يُنظر مختصر الزاهر، لأبي القاسم الزجاجي: ٤، ١، ٧٣، ١٤٦، ٤٣، ٤٩ بالترتيب .

(٢٥) من مثل باب القول في الألف والياء والواو في التثنية والجمع: ١٣٢_ ١٣٤.

(٢٦) من مثل باب القول في الفعل والمصدر أيهما مأخوذ من صاحبِه: ٥٦_ ٦٣.

(٢٧) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٣٩ .

(٢٨) يُنظر مقدمة د/ شوقي ضيف لكتاب الإيضاح.

(٢٩) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٤٠ .

(٣٠) الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٣٩ .

(٣١) يُنظر الزجاجي ومذهبُه النحْوي، د/ مازن المبارك: ٤٤ .

(٣٢) يُنظر الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ١٨ .

(٣٣) الجمل في النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٢٦٤ .

(٣٤) البيت لشاعر جاهلي مخضرم، اسمه: حضرمي بن عامر الأسدي، ووزنه: الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن). يُنظر: أمالي القالي: ٦٧، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام: ٦١٤ .

(٣٥) الجمل في النحو، لأبي القاسم الزجاجي: ٢٦ .

فهـرس الموضـوعـات

م	الموضـــوع	الصفحة
١-	ملخص	١٣٢٧
٢-	Abstract	١٣٢٨
٣-	المقدمة	١٣٢٩
٤-	فيما يتعلق بـ"التعريف بأبي القاسم الزجاجي"	١٣٣١
٥-	فيما يتعلق بـ فكر الزجاجي في "مختصر الزاهر"	١٣٣٣
٦-	فيما يتعلق بـ فكر الزجاجي في "الإيضاح في علل النحو"	١٣٣٧
٧-	فيما يتعلق بـ فكر الزجاجي في "الجمل في النحو"	١٣٤١
٨-	خاتمة بأهم النتائج والتوصيات	١٣٤٣
٩-	المصادر والمراجع	١٣٤٤
١٠-	روافد البحث	١٣٤٥
١١-	فهرس الموضوعات	١٣٤٧